«مدارات غربية» تحاور الفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه

# لا تعيش الأديان إلا بـ «الخروج من الدين»!!


حاوره في باريس:
**د. محمد نعمة**

تعريب: **ألبير خوري**


**لم يتوقف الفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه (Marcel Gauchet) عن البحث والتحليل منذ دخوله عالم الفكر. وهو منذ بداياته الاولى ظل ينتظر لحظة ما للخروج من «المياه الراكدة» للفكر الفرنسي.. لقد التقط فرصته المنتظرة، بانطلاق حركة الشبيبة عام 1968 ودخل من خلالها عالم الفكر الناقد الذي تمثل آنذاك بـ «المدرسة البنيوية». هذه المدرسة التي سيطرت على مفاصل واتجاهات التأثير لدى الانتلجانسيا الفرنسية من خلال عدد من كبار المفكرين امثال جان بول سارتر، جاك لاكان، ميشيل فوكو... غير أنه بعد زوال «حركة التمرد»، وتداعي آمال التغيير، وتفرق صفوف «الرفاق»، لم يطرح غوشيه جانباً كل ما في جعبته، إنما أبقى على «برنامج علم موحد للانسان يتكون من علوم اللغة واللاّوعي والتاريخ»، ومنذ ذلك الحين لم يعد برنامجه الفكري منحصراً في نقد الحداثة، وإنما، تكرَّس لفهم صيرورتها، ومستقبلها. من خلال هذا الفهم تكونت لديه الماهية العقلية، التي ترجمت عملياً عبر التزامه، وتقاربه الفكري، مع عدد من البحاثة امثال عالم الاجتماع كلود لوفور، وعالم الإثنيات بيار كلاستر، والطبيب النفساني غلاديس سوين، وعالما التاريخ بيار نورا وفرنسوا فوريه... وقد تمكن غوشيه من خلال هذه التجربة استخلاص ثلاثة خطوط متقاطعة تميز المنهج العقلي عنده: التاريخ السياسي للدين، علم جذور الفرد (GENEALOGIE) ومقاربة مصاعب ومأزم الديمقراطية.**

**في هذا الحوار الذي أجراه معه ناشر «مدارات غربية» في باريس، نستضيء بطائفة من طروحه الفلسفية في اللأهوت، وعلم اجتماع الأديان، ناهيك عن أحوال المسيحية الكاثوليكية في غرب ما بعد الحداثة.**

*** مدارات غربية: سيد غوشيه، قمت بصياغة اطروحتين: الاولى، تناولت «إزالة السحر عن العالم»، والثانية «ديانة الخروج من الدين»، فيهما تستكشف العلاقات بين الدين والديمقراطية، وبين الكنيسة والجمهورية، وبين الرمزي والمادي واللاّوعي. كان هذا عن طريق استخدامك «التاريخ السياسي للدين»، انتروبولوجيا المعتقدات، الفلسفة والتحليل النفسي... ورغم أننا نجد لديك بعض بصمات ماكس فيبر، وبعض الاثر لطريقة التأثير عند نيتشه حول العدمية الحدثية، إلا أن مقاربتك لموضوع إزالة «السحر» عن العالم، تتميز بفرادة خاصة تدعو الى التفكير، وتحديداً في ترابطها مع مفهومك الخاص حول «ديانة الخروج من الدين». هل بإمكانك أن تعطينا لمحة عن هاتين الاطروحتين؟**

**ـ غوشيه:** مفهوم «إزالة السحر عن العالم» ليس من ابتكاري وقد استعرته من ماكس فيبر (وتعود الفكرة اصلاً الى شيللر). لكن المشكلة لا ترتبط بفعل تطور فكّ هذا السحر داخل الحداثة الغربية (وأبرز مظاهرها تطور التفسير العقلي للطبيعة الفيزيائية مع نتائجها التقنية على حساب التفسير السحري للاشياء)، انما ترتبط بتجسيدها.

لكن ماذا كان يمثل الدين في العالم القديم الذي أبعدنا عنه فك سحره؟

كل الامور مرهونة بالإجابة عن هذا السؤال. لقد كشفت اطروحتي ان عالم ما بعد الحداثة لم يعد يهتم كثيراً بدور الدين لارتهانه لاحكام عرفية مسبقة او لأحكام «عرفية قائمة». بحيث لم نعد نرى في الدين اكثر من افراد مؤمنين. في الواقع لقد عملت الاديان على تنظيم العالم الانساني، والعلاقات الاجتماعية، والانماط السياسية خلال آلاف السنين. لا بد من الحديث عن بنية دينية للعالم، وبناء على ذلك يقاس عمق وقدرة فك السحر الديني. لقد أفضى الدين الى تغييرات انسانية حقيقية في تكوين الافراد ومجموع العلاقات التي تقوم بينهم.

أطروحتي الثانية، تناولت في الواقع، دور المسيحية الفاعل والمؤثر في سياق هذا التطور. لقد كانت المسيحية «دين الخروج من الدين». ويبدو ذلك واضحاً في اغرب ما تضمنته المسيحية من وجهة نظر تاريخية، بالنسبة لوحدانية الله عند اليهود والوحدانية بشكل عام، وأعني فكرة التجسُّد. في الواقع، هل هناك اغرب من تلك الفكرة التي تتحدث عن ابن الله الذي تجسد انساناً ليبشر الانسان بملكوت الله. انه الاقنوم الثاني للاله الواحد، (وسوف يعمل على إدخال اقنوم ثالث). صحيح ان السر ما زال عصياً على إدراك البشر، لكن آثاره مذهلة، وأعظمها بين كثيرها، يتبدَّى في عملية الصلب. وهي العملية التي على اساسها تكونت الكنيسة، المؤسسة والاداة لنشر المسيحية من خلال حياة المسيح. ولسوف يسمح التجسد، الاله - الانسان، للدين بجعل المستحيل ممكناً، مثلما يسمح أيضاً بلقاء الـ «هنا» بالـ «هناك». لقد وحّد المسيح، الانسان والاله، وهذا ما تستذكره الكنيسة كل يوم. إن في ذلك يكمن مفهوم خروج الدين من داخل الدين.

**❊ مدارات غربية: منذ عام 1985، تاريخ صدور كتابك «إزالة السحر عن العالم»، تأثَّر العديد من رجال الدين، وعلى رأسهم اسقف مدينة كلير مون فيران ايبوليت سيمون وأسقف مدينة انغوليم كلود داجن، بأطروحتك غير المألوفة حول المسيحية التي تجسد في تاريخ الانسانية «دين الخروج من الدين». هل تعتقد أن بالإمكان الخروج نهائياً وفعلياً من الدين؟ وهل الخروج عبر الدين ممكن، أفلا يعتبر الأمر مفارقاً؟ ثم ألا تظن أن**

**❖ لقد كشفت اطروحتي ان عالم ما بعد الحداثة لم يعد يهتم كثيراً بدور الدين لارتهانه لاحكام عرفية مسبقة، أو لأحكام «عرفية قائمة». بحيث لم نعد نرى في الدين اكثر من أفراد مؤمنين.**

## سيرة ذاتية

**من مواليد عام 1946، يعتبر مارسيل غوشيه «غير المنتمي»، واحداً من اهم المفكرين الفرنسيين في الفترة الراهنة، يشرف على مجلة "LE DEBAT" (جدل) الفرنسية منذ بداياتها، كما يشغل في الوقت نفسه مدير ابحاث في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس.**

**نشر غوشيه الكثير من الأبحاث، ومن أهم مؤلفاته:**

-Le Désenchantement du monde. Une histoire politique de la religion, Paris, Gallimard, "Bibliothéque des Sciences humaines", 1985.
-La Religion dans la Démocratie. Parcours de la laïcité, Paris, Gallimard "Le Debat", 1998 "Folio Essai", 2001.
-La Démocratie contre elle-même, Paris, Gallimard, "Tel", 2002.
-Pour une philosophie de l'éducation, en collaboration avec Marie-C Paris, Bayard, 2002.
-La Condition histotique, Paris, Stock, 2003.
-Un monde Dèsenchanté, Paris, Ed. De l'Atelier, 2004.

**هؤلاء الاساقفة الذين يقدمون العظات لتشجيع الخروج من الدين، يحاولون بجرأة أن يجعلوا من الدين المسيحي دين «دخول» الدين في الديمقراطية وحداثتها؟**

**ـ غوشيه:** لقد أدركت ذلك جيداً... ان رجال الدين الذين تقبلوا بحماس فكرة المسيحية على انها «دين الخروج من الدين»، لم يفعلوا ذلك لرغبة في الانتحار. ولا بد من ان تكون لهم مصلحة في ذلك، ورؤيتهم تختلف كلياً عن رؤيتي. من جهتي احاول ان ادرك الامور كمؤرخ، ومشكلتهم تكمن في اكتشاف ما عليهم معرفته كرجال كنيسة كونهم مسؤولين عن أبرشيات كاثوليكية. من وجهة نظري، ارى أن من حقهم التفكير بأنه لا فائدة من الاحتماء خلف رؤية ما للمجتمع المسيحي والسلطة السياسية للدين. لقد ماتت هذه النظرية وشبعت موتاً، ويستحيل بالتالي ممارستها. لا بد من إيجاد موقع آخر للديانة المسيحية في مجتمع الخروج من الدين، في المجتمع الديمقراطي، لأن الاديان لا تعيش إلا بالخروج من الدين، وربما وجدت بهذا الخروج انطلاقة جديدة تتطلب تحديداً عميقاً لما كانت عليه الاديان والمسؤوليات التي تسلمتها. أي تكييف العقيدة الكاثوليكية مع المتطلبات الشرعية لعالم ديمقراطي. هذا هو التحدي الذي يفترض أن يقوم به وبشجاعة اصحاب الافكار النيرة، والمسيحية في اوروبا يجب ان تكون خط الهجوم الاول لمحاولة ادخال الدين في الديمقراطية، تماماً كما تقول. لكن المشكلة تكمن في مجموعة التقاليد الدينية على سطح الكرة الارضية. هذا هو اساس الاضطرابات الكثيرة التي نعاني منها، وفي حال لم تبادر المسيحية الى هذا التجديد، فإن المشكلة سوف تزداد تعقيداً وتأزماً.

**❋ مدارات غربية : يبدأ عصر «إزالة السحر عن العالم» عندما تقوم الانشطارات الرمزية والمكانية. لكن إزالة الوهم هذا لا يبرر نهاية الدين. إنه يعني نهاية نظرة دينية معينة عن العالم ألقت بظلها على النطاق الخاص والنطاق العالمي في الوقت نفسه. وحسب فرضيتك، فإن التوحيدية خصوصاً في نسختها المسيحية، ليست سوى مرحلة انتقالية إذ إنها «ديانة الخروج من الدين». يبدو أن أطروحتك تبتعد عن «الداروينية الدينية»، وهي ايضاً ليست مضادة للتحليلية، ذلك ان تحليليتك توحي بأن التوحيدية قادرة على إلقاء ظلها على العصور الجماعية، وبنيات التفكير الفردي، وقادرة أيضاً على اختراقها، وكذلك بكونها العامل المحدد لوجود الرأسمالية (مساهمة البروتستانتية الاكيدة في ذلك)، ولكن ايضاً في تكوين عالمنا العلائقي. يبدو أن اطروحتك لا تنكر خصوصية الطاقة الحيوية للدين، رغم ان الدولة الفرنسية على الاخص قد توصلت الى ما يسمى «استنفاد اللامنظور» أي (الله). ما رأيك بهذا التفسير؟**

**ـ غوشيه:** أسئلة كثيرة في سؤال واحد. انه لمن الاكيد ان لا علاقة لي، لا من قريب ولا من بعيد بـ «الداروينية الدينية». كما ارفض بشدة تطوراً يعتبر التوحيدية اساس الانطلاق وقمة الافكار الدينية. كما لو كُنتُ كممثل غير المؤمن بالتوحيدية ويؤسس وجهة نظره على افتراضات واهية. دعني اجيب مباشرة على النقطة الاساسية التي يتضمنها سؤالك: هل يمكن تسجيل واقع إن مرحلة ما من الدين ما تزال غامضة في الغرب المعاصر؟، وأكثر تحديداً في اوروبا، دونما اي تعرض للدين، وإسقاط الدينامية الحيوية التي فيه. وحسبما تقول، نعم، اراهن على امكانية تحقيق ذلك. لقد لاحظت الانفصال عن الدين. والذي بات يشكل اسس المجتمعات الديمقراطية لاسباب ابعد كثيراً من ايمان الناس وعدم ايمانهم. ولاحظت ايضاً قدرة الاديان، بدءاً من المسيحية

**❖ لا بد من إيجاد موقع آخر للديانة المسيحية في مجتمع الخروج من الدين، أي في المجتمع الديمقراطي، لأن الاديان لا تعيش إلا بالخروج من الدين، وربما وجدت بهذا الخروج انطلاقة جديدة تتطلب تحديداً عميقاً لما كانت عليه الاديان والمسؤوليات التي تسلمتها. أي تكييف العقيدة الكاثوليكية مع المتطلبات الشرعية لعالم ديمقراطي.**

في اوروبا، على الاستمرارية بعد انفكاك السياسة عن الدين، وبالتالي على قدرتها انطلاقاً من هذا الواقع الجديد، ليس فقط على الاهتمام بحياة المؤمنين الشخصية، وانما ايضاً بالمشاعر الوطنية. وبهذا المعنى يمكن للاديان ان تلعب دوراً مميزاً وايجابياً على الصعيد الديمقراطي، اكثر بكثير مما فعلته منذ وجودها حتى اليوم. لقد آن الاوان لالتقاط السلسلة من طرفيها والتخلي عن المواجهات المعروفة والعقيمة.

*** مدارات غربية: ألا يعني إعلان «موت الله» المسيحي في الغرب موت الانسان الحديث أيضاً؟ عندما تهزم الكنيسة من قبل الدولة، والدولة من قبل الاقتصاد، وعندما تختزل «المدينة الديمقراطية» بالسوق، والمواطن بالمستهلك، ماذا يبقى من السيادة، او من الحرية السياسية الفردية والجماعية؟ أفلا يعكس اختزال الانساني الى مستوى نهم الحاجات، ازمة وجودية للديمقراطية التي فضلت التشرد الاخلاقي او أخلاقية «الإغراء» على أخلاقية المقدس واللاَّمنظور؟.**

ـ **غوشيه:** كلا، وبهذا المعنى اعتبر نفسي صريحاً وواضحاً. فموت الله المسيحي لا يعني لي ابداً موت الانسان المعاصر. وأضيف اكثر، ان الدولة لم يهزمها الاقتصاد ولا اختزال المدينة الديمقراطية بالسوق ولا المواطن بالمستهلك. اوافقك الرأي على وجود اتجاهات قوية تسير في هذا المنحى، لكنها ما زالت بعيدة عن تسجيل انتصارها طالما أن هناك اتجاهات مناقضة وقوية ايضاً. صحيح انها غير واضحة حتى الآن، لكنها لم تلفظ حكمها النهائي بعد. نحن نعيش وضعاً متأزماً، لكن في وضع متناقض، ما يعني امكانية اصلاح المسار اللاحق. المرض لا يعني الموت، وليس :المعركة الاخيرة»، انما هي لحظة تاريخية صعبة جداً، حيث توجد كل مظاهر التفكك المرضية التي ذكرت، والتي تتطلب في المقابل توحيد كل الجهود لمواجهتها. واولى هذه الوسائل برأيي تتبدى في التنوير الثقافي. علينا العمل جدياً لنفهم مآل الأزمة الوجودية للديمقراطية، وكلما بهرت مؤشراتها العيون، كلما بدت جذورها خارج الرؤية. انا محارب: إنني أرفض الهرب مهزوماً.

*** لاحظت ايضاً قدرة الاديان، بدءاً من المسيحية في اوروبا، على الاستمرارية بعد انفكاك السياسة عن الدين، وبالتالي قدرتها انطلاقاً من هذا الواقع الجديد، ليس فقط على الاهتمام بحياة المؤمنين الشخصية، وانما ايضاً بالمشاعر الوطنية.**

*** مدارات غربية: رغم الانحياز الكبير الذي قامت به التوحيدية بوضع الله خارج متناولنا وجعله مستحيل المنال، ورغم جهود الدولة الحديثة الجبارة لإبعاد الله عن «امورنا العامة»، هل توصل البشر برأيك الى تجاوز الله؟ ألم يبق بالنسبة إليهم هو الفكرة والهاجس والمؤسس؟**

ـ**غوشيه:** هل حاول الانسان ان «يتخطى الله؟ أشك بذلك. لا تطرح المشكلة امام الناس على هذا الشكل. لقد اسسوا شركة سياسية حيث الاشياء متبادلة فيما بينهم، وحيث حتى اولئك الذين يؤمنون بشدة، متفقون على عدم ادخال الله في هذه الاعمال. وما يخص الآخرين، فإن فكرة الله هي في الواقع مقدرة لتبقى شريكة. قد تصدم البعض، وقد لا تشغل بال آخرين، لكن الله ما زال يشكل اهتماماً لدى الجميع، وهذا ما هو جدير بالملاحظة. وفي المحصلة يمكننا القول ان اللامبالاة و«اللاثقافة» الدينية تَطَوَّرا بشكل كبير في اوروبا، لدرجة ان الناس افتقدوا القدرة على فهم ما تخفيه هذه الكلمة، التي هي الله. فهم يصفونه بالكامل، حتى اولئك الذين لم يتلقوا اي تنشئة دينية وليس لهم ادنى اهتمام بهذا الشأن. هذه الافكار المتجذرة هي ما يجب توضيحها.

*** مدارات غربية: قلت ان «المدينة» تعيش منذ الآن بدون الله وبدون المؤمنين به. بعد**

**مرور عشرين سنة على هذا الطرح، هل ما زلت تعتقد ان قدرة المؤمنين هي التي تموت، ام ان هذه القدرة هي في نشاط كامن وهي في حالة من الكبت، قد تظهر فجأة وكأنها «انتقام الله» أي انها ـ بتعبير آخر ـ تتمظهر كـ «عودة المكبوت»؟**

ـ **غوشيه:** إنني مصرّ على رأيي وأؤكد: لا ألحظ أدنى اشارة عن «انتقام الله» في الافق. على العكس، لقد ثبت لي ان الحركات التي يتهيأ لنا انها تعمل لردة ما نحو الدين، انما تعمل في العمق على تقويضه. هل نجحت الثورة الاسلامية في ايران الى بعث المجتمع الديني بكل ما تعنيه الكلمة؟ على العكس، لقد بات واضحاً ان هذه الثورة ادت الى ردة عكسية دنيوية تنتظر المناسبة الصحيحة لتجهر عن افكارها بالفم الملآن. وهذه حقيقة كل الظواهر الاصولية التي يمكننا متابعتها في الوقت الراهن. ان إعادة ترميم الدين كما هو حاصل اليوم، تسرع في الواقع، الدعوة الى الخروج من الدين. ومن جهة اخرى لا اقول إن عودة صادقة الى المجتمعات الدينية مستحيلة او غير متوقعة. قد يحدث ذلك. ما اردت قوله ان العالم اليوم يفتقد لمثل هذه القوى، التي يمكن ان تشجع لهذه العودة. هناك فقط مشاعر حنينية، ومن الضروري وجودها، لكن لا ألحظ أي كمون ايماني يمكن ان يستعيد الدين من خلاله سلطته جيداً ونهائياً.

**❋ مدارات غربية: ننهي الحوار، بإثارة موضوع فرنسي راهن، عندما يفوِّض الطائفي او الطوائفية، بما يعنيان من هدم وانغلاق، النفوس والمجال العلائقي ويخطفانهما. فلماذا اذن، والى متى ستبقى الديمقراطية الفرنسية غير مبالية بالدين؟ عندما يضعف الطائفي ديمقراطية هي اصلاً في حالة وهن بنيوي، ألا تحتاج هذه الديمقراطية، الى إدراج الدين في المجال العام، بل الى تنويع معنى المسؤوليات وابداعية المواطنين من اجل ديمومة وتعزيز «الرغبة في العيش المشترك».**

ـ **غوشيه:** علينا ألاَّ نعطي اهمية كبيرة لهذه الاصوليات الصاخبة التي تشكل اقليات. لا يمكن القول إن الديمقراطية الفرنسية قد أدارت ظهرها للدين. لقد قدمت الكثير في هذا المجال دون ان تدرك ذلك. لا أظن ان بقايا العلمانية الحادة تؤثر بقوة على الاحداث. من جهة أخرى لا يمكنني اعتبار التجمعات الفئوية خطراً حقيقياً وجدياً، وهي التي تولدت، ربما على خطأ، من حالات تهميشية في غيتو اجتماعي تسيطر عليه اقليات مسلحة. لكن بالنسبة للناس الآخرين، فإن هذه التجمعات ملحاحة وضاغطة وتطالب الدولة، بالمساندة الشعبية والمال، فضلاً عن الاعتراف بها. وأما انشقاقها فلا يبدو لي مخيفاً. والحقيقة ان هذه التجمعات تتكامل اكثر مما تتعارض. فضلاً عن ذلك، لا ارى هجوماً شبابياً يقبل الرضوخ إلى قانون هذه الجمعية او تلك. ان الشباب المعاصر لا يتردد في الجهر بحرية عن الجهة التي اختار السير وفقاً لقوانينها.

يجب ألاَّ نطلب من الديمقراطية ما لا تستطيع توفيره. هذا هو عمق المشكلة. ان تطور الديمقراطية يسير في اتجاه حيادي تصاعدي بالنسبة الى تعددية المجتمع، وهي بعبارات اخرى، ساحة تعايش أكثر فأكثر، وبالتالي فهي في تناقض لجهة كونها قوة روحية بذاتها. إذا كان الدين اقل ظهوراً في المجتمع الفرنسي، فذلك ليس بفعل التأثير الديمقراطي، انما لأن المؤمنين قد قلّ ايمانهم بالدين. ان السؤال الذي يجب ان يطرحه رجال الدين، هي معرفة كيفية التواصل مع مواطنيهم، وبالتالي معرفة ما اذا كان لدى هؤلاء ما يستحق سماعه من الناس؟ على رجال الدين ان يطرحوا السؤال على انفسهم، وليس من واجب الديمقراطية ان تقدم لهم ما لا يملكونه.

**❖ إذا كان الدين اقل ظهوراً في المجتمع الفرنسي، فذلك ليس بفعل التأثير الديمقراطي، انما لأن المؤمنين قد قلّ ايمانهم بالدين.**